عبد النبي اصطيف

كيف ينظر الآخر..

إلى أدبنا العربي

المقصود بـ(الآخر) في عنوان هذا المقال، هو الجار الجنُب، أو أوروبا بشكل خاص، وما يسمى الغرب بشكل عام، بوصفه النظير الضدّ، الذي حدّد هويته بمنظوره الطباقي، كونه يُشكِّل مع الشرق طباقاً تاماً، أو ثنائية ضدية.

وإذا ما رغب المرء في التخصيص، فإنه يقصد (بالآخر) المستشرق الغربي، أو المستعرب الذي يُعنى بالأدب العربي تحقيقاً ودراسة ومقارنة.

والمتتبع لعمل هذا (الآخر)، يتبين أنه ينطلق من منظورين: منظور يرى في الأدب العربي وثيقة تنطوي على جعبة من المعلومات تتصل بمنتجيه: ثقافةً، وتاريخاً، ومجتمعات، وأنها يمكن أن تساعده على فهم العربي الحديث أو المعاصر، وبعبارة أخرى؛ إنه (نافذة يطل منها على عالم الآخر). ومنظور آخر يرى في هذا الأدب فناً جميلاً بحكم إنتاجه المعايير والمقاييس الفنية، التي تمنحه هويته وتحدد طبيعته، أي أنه (صرح) في مسارات الموروث، أو جزء حي من التراث الذي يرتبط بهوية الجماعة، التي هي العرب.

والسؤال الذي يفرض نفسه على الباحث، هو: أين يمكن وضع الأدب العربي في هذا التباين الصارخ ما بين المنظورين: المنظور الذي يرى هذا الأدب مجرد وثيقة، والمنظور الذي يراه فناً جميلاً ينبغي تدبّره بوصفه كذلك مثل باقي فنون العالم؟ علماً أن كلا المنظورين ينطوي على الإقرار بوجود صلة وثيقة، بل عضوية بما يدعى (الذاكرة الجمعية) للأمة، أو الشعب، أو القوم.. هذه الذاكرة التي تكاد تكون القرص الصلب الذي تقوم عليه التطبيقات المتصلة بمكوِّنات هوية المجموعة التي يحتفظ بها أفرادها.

والأدب العربي، يمكن النظر إليه على أنه وثيقة، ولكن... ويمكن أن يكون كذلك (نافذة على الآخر) الذي هو الغربي، ولكن... ويمكن أن يكون مصدراً مهماً من مصادر معرفة هذا العربي: منتِجه ومستهلِكه وموضوعه، ولكن....

غير أنه في نهاية المطاف فن جميل، يفصح به العربي عن رؤيته للعالم، وعلى الدارس أن يسبر أغواره حتى يتم اكتشاف هذه الرؤية التي تيسِّر للآخر قاعدة مكينة للتعامل معه تعاملاً يقوم على الاحترام والندِّيّة، ويستند إلى المعرفة التي تُبدِّد العداوة.

نعم، إن الأدب العربي يمكن أن يُنظَر إليه على أنه وثيقة، ولكن هذه الوثيقة المزعومة (تخييل) تضافرت على تشكيله قوى عقلية ونفسية ومعرفية وفنية، تراكمت لدى منشئه ووظّفها إلى أقصى حدودها العليا في تجسيد إبداعه في نص نقرؤه ونستمتع به، وقد يحمل لنا فائدة ما في وجه من وجوه الحياة. إنه ليس حقيقة.. صحيح أن عناصره قد تكون مُستمَدَّة من الواقع النفسي أو الواقع الاجتماعي، أو الواقع السياسي، أو الواقع التاريخي، إلخ من وجوه التجارب الواقعية التي خبرها.. غير أن هذه العناصر تخضع لعملية تحوّل شاملة تُؤهِّلها إلى دخول محراب الفن، ومن ثَم فإنها لا يمكن أن تعتمد أدلّةً على مجتمع منتِجها مهما كانت درجة صدقها، علماً أن صدقها هو صدق فني، وليس صدقاً حقيقياً.

ينظر إلى أدبنا على أنه وثيقة تنطوي على جعبة من المعلومات الثقافية والتاريخية والاجتماعية

والأدب العربي يمكن أن يُتخَذ نافذةً على عالم (الآخر)، الذي هو الغربي في هذه الحالة، ولكن هذه النافذة تظل محكومة بمنظور موقِعها، وحدود رؤيتها، وربما بموقف صاحبها. ومعنى هذا أنّها لا تصلح دليلاً يُطمَأن إليه في توصيف مجتمع منتجها، أو عزو أية درجة من المصداقية لما يبدو في فسحتها. فضلاً عن أن ما تنتجه من معرفة يظل جزئياً، وربما تفسد جزئيته هذه الصورة الكلية لهذا المجتمع. وعلى أي حال فإن من المهم أن يتم استنطاق واستجواب ما يظهر لنا في هذه النافذة، ومساءلته، وقراءته قراءة متمعنة، وربطه بالعالم الذي أنجبه.

ومعنى هذا، أن من الحكمة في نهاية المطاف تدبّر نصوص هذا الأدب بوصفه فناً جميلاً، يفصح عن رؤية صاحبه للعالم. ولكن قد يُحاجّ المتتبع لتاريخ الثنائية الضدية الوثيقة/الصرح، أن كثيراً من المؤرخين الوضعيين قد أعلَوا صراحة من شأن الوثيقة على حساب الصرح، فليس ثمة تاريخ دون وثيقة. وهذا صحيح، ذلك أنه فضلاً عن أهمية الوثيقة في كتابة التاريخ، الذي يحفظ به المؤرخون ذاكرة المجتمعات، فإن من الضروري التنبُّه إلى المناهج الجديدة في الكتابة التاريخية، وبخاصة منهج أتباع مجلة الحوليات، الذي يلح على مقولة (علم التاريخ الشامل)، إذ يميل دُعاته إلى توسيع مفهوم الوثيقة لتشمل اللُّقى الأثرية، والنصوص المعمارية، والتصويرية، والأدبية، وجميعها تندرج ضمن مفهوم (الصرح)، وبهذا فإنهم يعزون صفة (الصرح) إلى كل وثيقة مهمة من الماضي بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الذاكرة الإنسانية.

ومعنى هذا أيضاً، أن الوثيقة لم تعد بالنسبة لأنصار التاريخ الجديد مجرد مادة خاملة، بل إنها باتت تخضع لعملية استنطاق، واستجواب، ودُعاة التاريخ الجديد باتوا يتناولون جميع أنواع المادة الوثائقية، التي باتت تشمل: الكتب، والنصوص، ومختلف أشكال السرد، والسجلات الرسمية وغير الرسمية، والقوانين، والمباني، والمؤسسات، والأنظمة، والتقانات، والأشياء، والعادات التي تظهر في كل مجتمع، وفي كل مكان، وفي كل زمان، وعلى نحو مستمر، وبصور عفوية ومنظمة. وبهذا حقق المؤرخون الجدد، بثورتهم الوثائقية، فتوحاً غيَّرت من منظور علماء الإنسانيات إلى التاريخ الإنساني، والمجتمعات الإنسانية، وضيقت الفجوة القائمة ما بين كتابة التاريخ وكتابة القصص، باهتمامها بالسلوك اليومي للإنسان، وعنايتها بمشاعره وعواطفه، والتوسع في موضوع دراستها لتشمل كل أعضاء المجتمع، بدل التركيز على الرجال العظام، والحوادث الكبرى، والتحولات التاريخية: أي أنها نبذت الاقتصار على التاريخ السياسي والعسكري والدبلوماسي، لتتناول كل الناس من خلال التاريخ التوثيقي الشامل للحياة الإنسانية، الذي يعنى بوثائق المحاكم، وسجلات الكنائس، وصكوك الزواج، وشهادات الولادة والوفاة، والتي باتت جميعها تتسنم الذروة في هرمية المصادر التاريخية.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة في هذا المقام، هو: كيف السبيل إلى التوفيق ما بين أتباع منظور الوثيقة التي ينبغي في نظرهم أن يعلو شأنها على شأن الصرح؟ (خاصة وأنهم قد نجحوا في إدخال الصروح الإنسانية بمختلف أشكالها وصورها، وعلى الرغم مما تُضمِره من توجهات أيديولوجية، وسياسية، ودينية، واجتماعية، وثقافية، وأدبية، في دائرة نفوذ الوثيقة)، وأتباع منظور الأدب بوصفه صرحاً، ودعوتهم إلى الحفاظ على استقلال فن الأدب واحترام سيادته، وخاصة وأنه محكوم بقوانينه، وقيمه، ومعاييره الخاصة، وحمايته ليتمكن من أداء دوره النبيل ووظيفته السامية في المجتمعات الإنسانية.

يبدو أن أفضل سبيل للتوفيق ما بين المنظورين، هو الإقرار بتميز الأدب بخصائصه الفنية، وضرورة النظر إلى نصوصه على أنها صروح وليست وثائق يمكن استعمالها أدلة مقصورة على جوانب، أو وجوه معينة من حياة مُنتجيها، والاقتصار على عدّها دلائل مُعزِّزة، دلائل من درجة أدنى من الدلائل التي تقدمها الوثائق، دلائل مرجِّحة على الأخذ بهذا الرأي أو ذاك، وليست بأي حال من الأحوال دلائل من الدرجة الأولى التي لا يأتيها الشك من بين أيديها ولا من خلفها. ذلك أن أهمية الأدب، كما وضّح ذلك الشاعر والناقد الأنجلو/أمريكي (ت. س. إليوت)، لا يمكن أن تتحدّد بالمعايير الأدبية وحدها، غير أن ما هو أدب بحق مما هو ليس بأدب، لا يتحدّد إلا بالمعايير الأدبية.

ويراه آخرون أنه أدب وفن وجزء من التراث الذي يرتبط بهوية المجتمع

والقول الحق إن الأدب العربي هو نافذة على الآخر ومصدر للمعرفة

يمكننا التوفيق بين المنظورين والإقرار بتميز الأدب العربي بخصائصه الفنية والفكرية